

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون

ومدى تأثيرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْحُ المَعْلَى في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهُدْيِهِ الكَرِيم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله (١) :

شهدتُ بآن وعد الله حقُّ وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تنمُّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صِرْمَةَ بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بديعة (٢) :

ونعلم أن الله لا شيءٌ غيره

وأن كتاب الله أصبح هاديا

وقول أبي الدرداء (٣) :

يريد المرء أن يُؤتَى مُنَاهُ

ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتي ومالي

وتقوى الله أفضل ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

وتحوّل شعراء قريش منذ فتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفّرون عما قدّمتمّ ألسنتهم بأشعار ، يعتدرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزبّيري^(١) :

يا رسولَ الملّيك إنَّ لساني راتقُ ما فتقتُ إذ أنا بُور^(٢)
 إذ أجارى الشيطان في سننِ العِى ومن مال مَيْلُهُ مَثْبُورُ^(٣)
 آمن اللحمُ والعظامُ بما قُدّمتَ فنفسى الفِدا وأنت الذّديرُ
 وقد حسُن إسلامهم ، ومضوا يصدرن عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقل
 الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجّعون عليه ، على شاكلة قول
 أبي سفيان بن الحارث^(٤) :

لقد عظمتْ مُصيّتُنا وجلّتْ عشيةٌ قيل : قد قُبِضَ الرسولُ
 نبيُّ كان يَجْلُو الشكَّ عِنا بما يوحي إلهه وما يقولُ
 وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والوادي وجدنا بينهم
 كثيرين يتقبسون من أضواء الإسلام ، ولا تقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل
 الله فحسب ، فقد عمّ ذلك من ظلوا في الجزيرة ولم يُتّيح لهم تقدم سنهم شرف
 الاشتراك في هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من
 الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عبّدة بن الطبيب الذي تحدثنا عنه
 في شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بدبعة ، ونراه في شطر
 كبير منها يوصي أبناءه بتقوى الله وبيّر الوالد والحذر من التمام الذي يزرع
 الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول^(٥) :

أوصيكمُ بتقىِ الإله فإنه يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ
 وبيّرُ والدكم وطاعة أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوعُ

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

واعصوا الذي يُزجى النمام بينكم متنصحا ذاك السام المنقع^(١)
 يُزجى عقاربه ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدع^(٢)
 وهو القاتل في رثاء قيس بن عاصم^(٣) :

عليك سلام الله قيس بن عاصمٍ ورحمته ما شاء أن يترحمها
 فلم يك قيس هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيان قوم تهدماً

وواضح ما في البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سويد^(٤) بن
 أبي كاهل اليشكري فسرى المفضل الضبي يروي له قصيدة^(٥) يفخر فيها فخراً
 جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم
 من نعمٍ ، يقول :

كتب الرحمن والحمد له سعة الأخلاق فينا والضلع^(٦)
 وإياء للدنيات إذا أعطى المكثور ضيماً فكنتع^(٧)
 وبناء للمعالي إنما يرفع الله ومن شاء وضع
 نعم الله فينا ربها وصنيع الله ، والله صنع^(٨)

ويعضى فيعرض لخصم دنى النفس كان يغباه ، ونراه يصفه وصفاً
 يستلهم فيه الآية الكريمة (ولا يفتب بعضكم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل
 لحم أخيه ميتاً فكرهنموه) يقول :

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السام : السم .
 المنقع : انقاتل .
 (٢) الأخدع : عرق في العنق إذا ضرب
 أجاوبته العروق .
 (٣) الشعر والشعراء ٢/٧٠٥ .
 (٤) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ١٠١٠/٣٨٤
 والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن
 سلام ص ٢٨ والإصابة ٣/١٧٢ والخزانة
 ٥٤٦/٢ وحديث الأربعا . لطف حسين
 (طبعة الحلبي) ١/١٩٠ .
 (٥) المفضليات ص ١٩٠ .
 (٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
 (٧) المكثور : المغلوب . كنتع : خضع .
 (٨) رجا : أتمها . صنع : صفة ، لافعل ،
 أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وِدَاءٌ يُدْرَعُ^(١)
 وَيَحْيِيَنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَه لَحْمِي رَتَعُ^(٢)
 وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنِّ كَبِيرَةِ الْخَصَيْنِ^(٣) بِنِ الْحُمَامِ سَيْدِ بَنِي مَرَّةَ الذَّبْيَانِيِّنَ ،
 وَلَهُ آيَاتٌ تَطْرُدُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ^(٤) :

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيهِ الْحُرُوبُ لَبِسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا^(٥)
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا التُّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ آجَالَهَا
 أَمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزِلُ أَنْزَالَهَا^(٦)
 أَعْوَدُ بَرِّي مِنَ الْمُخْزِيَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسَ أَعْمَالَهَا
 وَخَفَّ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِينَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الآيات وآي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :
 (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذي
 يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإن من شيء
 إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله عزَّ شأنه : (إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
 زِلْزَالًا) (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما
 هاهوية وما أدراك ما هي نار حامية) (ووقيت كل نفس ما عملت وهو أعلم
 بما يفعلون) .

واقراً في السَّمِيرِ^(٧) بِنِ تَوَلَّبٍ ، وَهُوَ مِمَّنْ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ وَقَدْ عَمَلَتْ سُنَّتُهُمْ ،

- | | |
|-------|---|
| (١) | وخم : غير مرى . يدرع : يلبس . |
| (٢) | رتع : أكل بنهم . |
| (٣) | انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢٠٠/٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغاني (طبعة دار الكتب) |
| | ١/١٤ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد |
| | العامة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزاعة ٧/٢ |
| (٤) | أغاني ١٤/١٤ . |
| (٥) | تسعر : تتقد . السربال : الدرع . |
| (٦) | أنزأها : منازأها . تنزل أنزأها : تنزع مراقبها . |
| (٧) | انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨ وابن سلام ص ١٣٣ والأغاني ١٩/١٥٧ والموشح ٧٨ والخزاعة ١/١٥٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ . |

فسترى في شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله (١) :

ومنى تُصَبِّكُ خِصَاصَةً فَارْجُ الْغِنَى وإلى الذي يُعْطَى الرَّغَائِبَ فَارْغِبِ
وهو القائل (٢) :

أَعِدَّنِي رَبِّ مِنْ حَصْرٍ وَعَيْءٍ ومن نَفْسٍ أَعَالَجَهَا عِلَاجًا
ومن حاجاتِ نَفْسِي فَاعْصِمْنِي فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا (٣)
وَأَنْتِ وَلِيِّهَا فَبِرْتُ مِنْهَا إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَا (٤)
وَيُرَوَى أَنَّهُ أَشَدُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا (٥) :

لِللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالشَّعْرَى وَأَيَاتُ أَنْخَرِ
ومرت بنا استجارةُ المختبِلِ (٦) السَّعْدِيُّ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَ بَيْنَهُ
لِلْغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّه عَلَيْهِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي نَهَايَةِ قَصِيدَةٍ لَهُ رَوَاهَا الْمَفْضَلُ الضَّبِّيُّ (٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشُدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ
وَكَانَ فِي الشَّمَاخِ (٨) شُرَكَائِي ، وَهُوَ مِمَّنْ شَارَكُوا فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِسِيَّةِ وَمَعَارِكِ
أَدْرَبِيحَانَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَجِدُ فِي دِيْوَانِهِ شَيْئاً وَاضِحاً عَنِ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَكَأَنَّمَا عُنِيَ الرَّوَاةُ بِشَعْرِهِ الْبَدْوِيِّ وَإِحْسَانِهِ فِيهِ لَوْصَفِ الْقَوْسِ وَحِمَارِ الْوَحْشِ (٩) ،
وَمَا يَتِمَثَّلُ بِهِ مِنْ شَعْرِهِ (١٠) :

ليس بما ليس به بأسٌ بأسٌ ولا يَضُرُّ الْبِرَّ مَا قَانَ النَّاسُ

-
- (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغاني ١٦١/١٩ .
(٢) الأغاني ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ .
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) علاج : اعتراض .
(٥) أغاني ١٥٩/١٩ .
(٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١٠ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٩/١٣ .
(٧) الإصابة ٢١٨/٢ والخزانة ٥٣٦/٢ والموشح ص ٧٥ .
(٨) المفضليات ص ١١٨ .
(٩) راجع في ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢٧٤/١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٨/٩ والخزانة ٥٢٦/١ والإصابة ٢١٠/٣ والموشح ص ٦٧ .
(١٠) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع الحيوان ٧٩/٥ .
(١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأول : شجاعة .

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جرّء لعمر بن الخطاب ،
 واشتهر أخوهما مزرد^(١) بهجائه وخاصة للأضياف ، ويظهر أنه ارعوى وقاب عن
 الهجاء . كما يدل على ذلك قوله^(٢) :

تَنْزَلَتْ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِتَوْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنِي لَا يِنَادَى وَلِيَدَهَا
 وَمَنْ شِعْرَاءِ هَذَا يَلُّ الْبَارِعِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَبُو ذُرَّيْبٍ^(٣) الْهُدَلِي . وقد قدم
 المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف بيكيه مع الباكين قائلاً
 من أبيات^(٤) :

كُسِفَتْ لِمَصْرَعِهِ النُّجُومُ وَبَدَّرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ آطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
 وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلِّهَا وَنَخِلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفْدِحِ

وهو في ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْلِ ، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل .
 وقد خرج يغزو في سبيل الله ، ونراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سرح
 الذين فتحوا قرطاجنة ، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين
 له بفتحها . وعاد إلى مصر ، ولكن حدث أن توفي له - قبل وفاته بعام -
 خمس بنين في وباء ، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس^٥ رضاه بقضاء الله مع
 التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله^(٥) :

أَوْدَى بِنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعِبْرَةٌ لَا تُقْلَعُ
 فَغَبِرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشُ نَاصِبٍ وَإِخَالٌ أَنَّى لَاحِقٌ مُسْتَتَبِعٌ^(٦)

ومعاهد التنصيص ١٩٥/١ ومعجم الأدباء ،
 لياقوت (طبع مصر) ٨٣/١١ وشرح
 شواهد المعنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجي)
 ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .
 (٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب
 المصرية) ١/١ وما بعدها .
 (٦) غبرت : بقيت . ناصب : متمب .
 مستتبع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء
 ٢٧٤/١ والخزاعة ١١٧/٢ والإصابة ٨٥/٦
 ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص
 ٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٨٥/٦ .
 (٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ١١٠
 والشعر والشعراء ٦٣٥/٢ والأغاف ٢٦٤/٦
 والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٦٣/٧
 والخزاعة ٢٠٣/١ وأسد الغابة ١٨٨/٥

وإذا المنية أنشبت أظفاراها ألفت كل تميم لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبته وإذا ترد إلى قليل تنفع
وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى
أبا عبيد^(١) :

أبا عبيد وقع الكتاب واقترب الوعيد والحساب
وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء برأ ورحمة بأهلهم وأقربائهم .
ويشتهر في هذا الصدد عمرو بن شأس الذي سبق أن عرضنا له في شعر الفتوح ،
فقد كان له ابن من أمة سوداء ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها
بقطعة المعروفة^(٢) :

أردت عرارا بالهوان ومن يرذ عرارا لعمري بالهوان فقد ظلم
وكان ينحو هذا المنحى معن^(٣) بن أوس المزني في عتابه لابن عمه الذي
أساء إليه إساءة كبيرة . وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره في صفحه عن
زلاته برأ به وبقرابته مع تجنيبه عليه وتجريمه . يقول^(٤) :

وذى رحم قلمت أظفار ضغفه بحلمى عنه وهو ليس له حلم
فما زلت في لين له وتعطف عليه كما تحنو على الولد الأم
ومن غير شك كان يستهدى في ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى
البر بالأقرباء والصفح الجميل . ويمرض عمرو^(٥) بن أحمر الباهلى فيتوجه
إلى ربه داعيا^(٦) :

-
- (١) أغاني ٢٧٩/٦ ومعجم الأدباء ١١٠٨/٨٩ .
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ .
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥٤/١٢ والإصابة ١٧٩/٦ والخزانة ٢٥٨/٣ وانظر فهرس البيان والتبيين والجماسة للرزوق ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص . وقد نشرت أشعاره في ليزج .
(٤) أغاني ٦٠/١٢ وديوانه (طبعة ليزج)
ص ٥٠٠ .
(٥) راجع ترجمته في ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ٣١٥/١ والإصابة ١١٤/٥ والخزانة ٣٨/٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموضح ص ٨٠ .
(٦) الشعر والشعراء ٣١٦/١ وقد روى له ابن سلام قطعة حكوية يقول فيها :
والحى كالميت ويبنى التقى
والعيش فنان فحلو ومر

إِلَيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ أَرْفَعُ رَغْبِي عِيَاذًا وَخَوْفًا أَنْ تُطِيلَ ضَمَانِيَا^(١)
فَإِنْ كَانَ بُرَّةً فَاجْعَلِ الْبُرَّةَ نِعْمَةً وَإِنْ كَانَ فَيْضًا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضِيَا^(٢)
وَمَنْ نَحَسَ عِنْدَهُمْ أَثَرَ الْإِسْلَامِ وَاضِحًا نَهَشَل^(٣) بِنِ حَيْرِيٍّ فِي مَرَاتِيهِ لِأَخِيهِ
مَالِكٍ ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ بِصَفِيْنٍ ، وَمَنْ قَوْلُهُ فِي إِحْدَاهَا^(٤) :

أُنَاسٌ صَالِحُونَ نَشَأَتْ فِيهِمْ فَأَوْدَوْا بَعْدَ إِلْفٍ وَاتِسَاقٍ
أَرَى الدُّنْيَا وَنَحْنُ نَعِيْتُ فِيهَا مَوْلِيَّةٌ تَهِيًّا لِانْتِطَاقِ
أَعَاذَلٍ قَدْ بَقِيَتْ بَقَاءَ قَيْسٍ وَمَا حَيُّ عَلَى الدُّنْيَا بِيَاقِ
وَكَانَ بِجَانِبِ مَنْ قَدَّمْنَا شِعْرَاءَ عُرِفُوا بِرِقَّةٍ دِينِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَحِينٌ نَتَعَقِبُ
شِعْرَهُمْ نَجِدُ فِيهِ خَيُوطًا إِسْلَامِيَّةً تَظْهَرُ فِي نَسْجِهِ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ ، مِنْهُمْ
عَبْدٌ^(٥) بَنِي الْحَسْحَاسِ ، وَكَانَ يَتَغَزَلُ غَزَلًا مَفْحَشًا جَعَلَ قَوْمَهُ يَقْتُلُونَهُ لِعَهْدِ
عُمَانَ وَنَرَاهُ يَقُولُ :

عُمَيْرَةٌ وَدَّعَ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيَا كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَنْشَدَ هَذَا الْبَيْتَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ : لَوْ قُلْتَ شِعْرَكَ
مِثْلَ هَذَا لِأَعْطَيْتَكَ عَلَيْهِ . وَمِثْلُهُ النَّجَاشِيُّ^(٦) قَيْسُ بْنُ عَمْرٍو ، الَّذِي حَدَّثَهُ عَلَى بِنِ
أَبِي طَالِبٍ فِي شَرْبِ الْخَمْرِ بِرَمَضَانَ ، وَقَدْ تَهَاجَى مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَى
رَأْسِهِمْ تَمِيمُ بْنُ أَبِي بِنِ مَقْبِلِ الْعَجَلَانِيِّ ، وَفِيهِ وَفِي قَبِيلَتِهِ يَقُولُ :

إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لَوْمٍ وَدَقَّةٍ فَعَادَى بَنِي الْعَجَلَانَ رَهْطًا . ابْنُ مِقْبَلٍ^(٧)
قَبِيلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلَمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة
٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد اللفظي
١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
(٦) راجع في ترجمة النجاشي الاشتقاق
لابن دريد (نشرة الخانجي) ص ٤٠٠ والشعر
والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة
٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بني العجلان ، وواضح
أن النجاشي يرميهم بأن أحسابهم لثيمة خبيثة .

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان في جده
من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥
والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠
والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أمالي المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بن الحسحاس في
أغانى (ساسي) ٢/٢٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثاني، فإن الإسلام يُجِبُّ الوفاء بالذم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. وكان ابن^(١) مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «لأنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية»^(٢) ومع ذلك نددت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الخفيف من مثل قوله^(٣):

هل الدهرُ إلا تارتان فمئهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكُدْحُ
وكلتاها قد خُطَّ لي في صحيفة فلا الموتُ أهْوَى لي ولا العيشُ أروحُ
وهو يصندر في البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن ننبئها) وما يروى له قوله^(٤):
الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
ومن يسلك في هؤلاء الشعراء الذي عرفوا برقة دينهم الحطية، وسرى عما قليل أثر الإسلام في شعره.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية^(٥)، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون في طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولييد والحطيئة والنايعة الجعدى، لتري فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام، ولندل في وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سئرى عند لييد والنايعة الجعدى.

- (١) راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء
(٢) ٤٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة
(٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣
(٤) طبرى ٢٩/٥
(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لئالينو (طبع ١٩/٢
دار المعارف) ص ٩٥ .
(٦) ابن سلام ص ١٢٥ .

حسان^(١) بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي « من سادة قومه وأشرافهم » ، وكانت أمه « الفريعة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله^(٢) . وهو يسلك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سن^٣ تقريبية ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل ستة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خزرجياً فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

وزاره قبيل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت^(٣) . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدَّم عليه الأعشى ، فأثار موجدته^(٤) .

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أئدّه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عليهم من

المعنى ص ١١٤ والخزافة ١٠٨/١ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوق وفي تونس والهند وبيروت ، وتعتمد في المراجعة على طبعة ليدن .
(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨ .
(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١٢/٣ والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .
(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٤/١٥٧ و (طبعة الساسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٥/٤ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النَّبِيلُ » ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشق واشتفى » . ومرَّ بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها وبعيَّرتهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين فعلاً ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهم وجبريل معك » (١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تَزَنُ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنِيَّ مِنْ لَحُومِ الْغَوَافِلِ (٢)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنْامِلِي
ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل آثاروه في هذا الحادث ، حتى وجد وجدداً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِيْبُ قَدْ عَزَّوْا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ (٣)
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبِّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يتقسم له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهي أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته في كتب الصحابة والأغاني ١٣٧/٤ وما بعدها .
(٢) حسان : عفيفة . رزان : ذات وقار .
تزن : تنهم . غرنى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب النساء .
(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصفاً ولشأنهم . البلد هنا : النعام . وفي المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيعضه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلُّونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه
عميَ بأخرة .

وبحقَّ سُمِّيَ حسانَ شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه
أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصمِّية . وقصته
مع الحارث بن عوف المرتضى حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة،
فقد قال فيه وفي عشيرته :

إِنْ تَعْدِرُوا فَالْعَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْعَدْرُ يَنْبِتُ فِي أَصُولِ السَّخْبِرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلاً إليه
أن يكفَّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا
الوفد الزبيرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً . يقول في تضاعيفه :

إِنْ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيَّنَّا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ (٢)
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْقِي لِأَذْنِي سَبَقَهُمْ تَبَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحِي قَلْبُ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانُ حَائِكُ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً . وقد انفق الرواة والنقاد على أنه أشعر
أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلَّف ديواناً ضخماً رواه ابن
حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : «تُنسَبُ
إليه أشياء لانصح عنه» (٣) ويقول ابن سلام : «قد حُمِلَ عليه ما لم يُحتمَلْ على
أحد ، ولما تعاضهت (تشاطت) قريش واستبَّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة
لا تُنقى» (٤) . وكان ممن حَمَلَ عليه عُشاءً كثيراً ابنُ إسحق في المغازي، ولاحظ
ذلك ابن هشام وهو يتروى عنه السيرة النبوية . فكان يرجع إلى العلماء بالشعر
وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب قريش ، يريد المهاجرين .

(٢) فلان السخبر إذا غدر . (٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .

(٤) الذوائب : الأعالى في الشرف . فهر : (٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُشبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتاً في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام لئنعلم مدى ما وُضع على حسان ، فن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد: « وأهل العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »^(١) ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك^(٢) ونسب ثالثة إلى عبد الله^(٣) بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل^(٤) بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية اللدلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجشمي^(٥) . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن^(٦) . وإذا مضينا نبحت في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بدليل^(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان^(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصَّ الرواة على أنها لصيرمة^(٩) بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في الفخر بالأزد وهما لسعد^(١٠) بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير^(١١) بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

-
- (١) انظر ابن هشام في مقطوعة عينية ٥٦/٣ وفي قصيدة عينية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حائية في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء حبيب ١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤ ، وكذلك مقطوعة بائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في عمرو بن ود في ٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ .
- (٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣ وقابل بالديوان ص ٦٣ .
- (٣) السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ .
- (٤) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ .
- (٥) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ص ٥١ .
- (٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ص ٥١ وراجع الحيوان ١٠٨/٣ حيث تشكك المحاضر في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .
- (٧) انظر الديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ .
- (٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .
- (٩) راجع الديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب ص ٣٣٤ ، ١٤ .
- (١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع السامى) ١٤/١٢٠ .
- (١١) راجع الديوان ص ٤٢-٤٣ وقارن بالأغاني ١٤/١٢٠ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذمّاً قبيحاً^(١) ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حمّل عليه^(٢) . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون^(٣) ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرته حين كان أبوسفیان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير^(٤) بن العوام وعبد الله^(٥) بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وضع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كثّرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما أتته الرواة^(٦) ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لنا الجفّناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسِافُنَا يَقْطُرُنْ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بِيضُ الوجوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابِهِمْ شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نبتعد منه ما أتته الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثم كنا نرتضى ميميته (تبكّت فؤادك في المنام خريدة^(٧)) التي يعير فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره في يوم

عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه أشعار في هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١/٣٠٠ .

(٦) انظر الأغاني (ساسة) ١٤/١٢٥-١٢٧ .

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان في هجاء بنى الحماس الحارثيين قوم النجاشى ص ٤٧، ٨١٤ وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢ حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النوم - بالعشاء الموموم) التي يهجو فيها ابن
الزُبَيْرِي ويفتخر بقومه فخرأعنيقا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبيداء رَسْمُ
المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان
ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام^(١) . ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها
بقوله :

وإن سَنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد^(١)
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كإل السَّقْبِ من رَأل النِّعام^(٣)
وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الحمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :
هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر
على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين :
جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام^(٤) . وهو يمضي في الجزء الثاني
متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء
المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية إذ يعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم
ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه . من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كِفَاء^(٥)
وقد تبرز المعاني الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة
يعيرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتبعه حتى الممات ونضُرُّ غير محدودٍ
مستعصمين بحبلٍ غير مُنْجدمٍ مُستحکمٍ من حبالِ الله ممدود^(٦)

الإل : القرابة .

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٤) انظر الاستيباب ص ١٢٩

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي

(٥) كفاء : كفء ونظير .

وهي أم عبد الله وأبي طالب والزيد بن عبد المطلب .

(٦) منجدم : منقطع .

(٣) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .
وله مرث في الرسول الكريم تتضح فيها المعاني الإسلامية اتصاحاً على نحو
ما يلقانا في مرثيته التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مرثيته البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن
قوله في عمر حين توفّي على إثر طعنة فيروز المجوسى :

وفجّعنا فيروزٌ لا درٌّ درُهُ بأبيض يتلو المُحكّمات منيب^(١)
وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين
الحنيف وهدية الكريم .

٣

كعب^(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبي سُلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله
بنى مُرّة الذُبْيانيين . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بسجّير
ومثل الحطيئة ، ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى
تضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،
فيُلتى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه^(٣) تمريناً له وتدريباً . على صوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٢٤٠/٤
والإصابة ٣٠٢/٥ ومعجم الشعراء للرزباني
ص ٢٣٠ والخزّانة ١/٣٧٥ ، ١١/٤ .
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٥/١٤١ وأمان
المرتضى (طبع الحلبي) ٩٧/١ .

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو
عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ وأغاني (طبعة الساسي)
١٥/١٤٠ وابن هشام ٤/١٤٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الخطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الخطيئة قال له : « قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع » (١) . فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلشُّرَاقِ شَانَهَا مِنْ يَحُوكَهَا إِذَا مَا تَوَى كَعْبٌ وَفَوْزَ جِرْوَلُ (٢)
ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والخطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بـجـبـر ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله (٣) :

أَلَا أَبْلَغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيهَا قَلْتُ وَيَحْكُ هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمُؤْمِنِ كَأَسَا رَوِيَّةً فَأَنْهَلَكَ الْمُؤْمِنُ مِنْهَا وَعَلَّكَ (٤)
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء - ويب غيرك - ذلك (٥)
على خلقي لم تُلْفِ أُمًّا وَلَا أَبًا عليه ولم تدرك عليه أخاً لك
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بـجـبـر فيما أجابه به بقوله (٦) :

مَنْ مَبْلَغُ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعَزَى وَلَا اللَّاتِ وَحَدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَليْسَ بِمَفْلَتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ
وما زال كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بـجـبـر أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الخطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (سامي)

(٤) والسير ١٤٤/٤ والاستيعاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المؤمنون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر .

الهلل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثاني .

(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ،

ويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسير ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يقدّم على رسول الله تائباً . وشرح الله صدره للإسلام . فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر ، فوقع من نفسه « فلما سلّم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال : يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام ، فبسط النبي . صلى الله عليه وسلم ، يده ، فحسّر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله ! أنا كعب بن زهير . فتجهّمته الأنصار وغلظت له ، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبّت المهاجرة أن يسلم ويؤمّنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمنه رسول الله »^(١) ، وأنشده مدحته الخالدة :

بانّت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ^(٢)

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم ببردّة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين^(٣) . وقد اكتسى بها كعب حلّة مجد لا تبلى ، ولقّبت قصيدته من أجلها بالبردة . ونراه يستهلها بالغزل ، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتين عندها فليس له فكاك ، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده^(٤) :

وفارقتك برهنٍ لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهنُ قد غلِقاً^(٥)

وُيلحُ في وصف سعاد ويشبهها بالطبي ويشبه ريقها بالخمير ، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة ، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبه لوعدها . ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل . وما زال ينعت ناقته حتى قال يصورُ خوفه وفزعه من رسول الله :

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء

(٢) ١٠٤/١ وانظر الأغاني ١٤٢/١٤ .

(٣) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة

دارالكتب المصرية) ص ٦٦ . ومتبول : مغرم .

(٤) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

وبانت : فارقت . مكبول : مقيد .

وقلت خَلُّوا طريقي - لا أبا لكم - فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولٌ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالَتْ سلامتهُ يوماً على آلهِ حَدْبَاءَ محمولٌ
أنبئتُ أَنَّ رسولَ الله أوعدني والعَفْوُ عند رسول الله مأمولٌ
مَهْلًا هداك الذي أعطاك نافلةً لا قرآن فيها مواعيطٌ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنبُ ولو كثرتُ عنى الأقاويل
إن الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به مَهْنَدٌ من سيوف الله مسلولٌ (١)
في عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم بيطن مكة لما أسلموا زُولُوا (٢)
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشْفٌ عند اللقاء ولا مِيلٌ مَعَازِيلُ (٣)
ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمالِ الزُّهْرِ يَعْمَمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ (٤)
يعرِّضُ بالأنصارِ لغلظهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ، وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصارَ :
من سَرَّه كرمُ الحياة فلا يَزَلْ في مِقْنَبٍ من صالحى الأنصارِ (٥)
الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبارِ
يتطهرون - كأنه نُسْكٌ لهم - بدماءٍ مَنْ عَلِقُوا من الكُفَّارِ (٦)
صلعوا عَلِيًّا يوم بَدْرٍ صَدْمَةٌ دَانَتْ لوقَعَتِهَا جميعُ نزارِ (٧)

عز صحبه ومن يستغيث به .
(٤) الزهر : البيض . عرد : نكس وجبن .
التنابيل : الفصار .
(٥) المِقْنَب : جماعة الخيل والفرسان .
(٦) علقوا : قتلوا .
(٧) يريد يعلى بنى على بن مسعود وهم بنو كدانة .

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند وهو خير السيوف .
(٢) زولوا : هاجروا .
(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الصعيق الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان . معازيل : جمع معزال : وهو الذى ينمزل فى الحرب

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إن الكرام هم بنو الأخيار
وحَسَنَ إسلام كعب. وأخذ يصدر في شعره عن مواعظ وحكم يستهدى
فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبنى سَعَى الفَتَى وهو محبوبٌ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأمرٍ ليس يُدركها والنفس واحدةٌ والهَمُّ منتشرٌ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ
وفراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده . وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم
الذى يُفَضِّلُ عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أَعْلَمُ أَنى مَتى ما بَأْتنى قَدَرى فليس يَحْبِسُهُ شُحٌّ ولا شَفَقٌ^(١)
والمرء والمال يَنْمى ثم يُذْهِبُهُ مَرُّ الدهورِ ويُبْغِيهِ فَيَنْسَحِقُ
فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى فَضْلَ الذى بِالْغنى من عنده نَتَقُ
إن يَفْقَنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو في ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر
الشخص منهم في رزق غد . بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر .
وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها في الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر
مع من يصطنيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأقسمتُ بالرحمن لا شيء غيره عيّنَ امرئٌ بَرٌّ ولا أتحللُ^(٢)
لأستشعرنُ أعلى دَرِيَسَى مسلماً لوجه الذى يُحْيى الأنام ويقتل^(٣)
هو الحافظُ الوَسنانُ بالليل مَيْتاً على أَنه حَيٌّ من النوم مُثَقَلُ^(٤)
من الأسودِ السارى وإن كان نائراً على حَدِّ نابه السَّمَامِ المُثْمَلُ^(٥)

(١) شفق : خوف .

(٢) لا أتحلل : لا أستغنى .

(٣) الدريس : الثوب البالى . كفى بذلك عن

حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت .

(٤) الوسنان : النائم .

(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير

ليلاً . النائر : الطالب بثأر . المثمل : المجمع

وهي تَمَّ عن ولائه لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذي يكلاً عباده و يقيهم الأذى ، ولعلّ في ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره في إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخراً متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لئراه في الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له . لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول (١) :

إن كنت لا ترهب ذِيّ لما تعرف من صفحِي عن الجاهل
فاخشس سكوتي إذ أنا منصتٌ فيك لمسموع خنأ القائل
فالسامع الذامُّ شريكٌ له ومطعمُ المأكول كالأكل
مقالةُ السوءِ إلى أهلها أسرع من مُنحدرٍ سائل
ومنّ دعا الناس إلى ذمِّه ذمّوه بالحق وبالباطل
ولا تهجّ إن كنت ذا إربةٍ حربَ أخى التجربة العاقل^(٢)
فإنّ ذا العقْل إذا هجتهُ هجّت به ذا خبلٍ خابلٍ

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا يجنى على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسمّاً ، ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التفرّيع لمن يهجوّه بدلا من الطعن في الأعراض سنّهم القديمة .

(٢) الإربة : الدهاء .

(١) الخزانة ١٢/٤ والاشتياح ص ٢٢٧

والحيوان ١٥/١ .

ليبد^(١)

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبووربيعة وأعمامه الطَّفَيْلُ وأبو براء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثمَّ لُقِّبَ : « ربيعَ المُقْتَرين » وقد قتلته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّبَ بملاعب الأسته ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقَّبَ بمعوذ الحكماء . وأم ليبد تامة بنت زباج العبسية .

وقد نشأ ليبد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها ، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل - إن صحَّ - بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حدثاً ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بني عبَّس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العباسيين وبني عامر قبيلة ليبد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط ليبد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزافة ١/٢٢٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هو بر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعته في ايدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة ليبد ابن سلام ص ١١٢ والشعر والشعراء ٢٣١/١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٦١/١٥ وطبعة السامى ١٥/١٣٠ وطبعته ابن سعد ٢٠/٦ وأمد ثعابة ٤/٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأمد المرتضى (طبعة الخاى) ١٨٩/١ والاستبصار ص ٢٣٥ والإصابة ٤/٦

مقدع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامرين . وسواء
أصح هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه
في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتبه في أول
الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَمَّتِ الديار محلُّها فقامها » أخذ يظهره .
وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته
النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه ^(١) . فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم
يُعْلَن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته . حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه
عامر بن الطفيل وأخوه أريد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعصمه
الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله . أما
أريد فترلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء
حاراً .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار
ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفاه
الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه
حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً . ويصورون ذلك فيقولون إن عمر
أرسل إلى المغيرة بن شعبه واليه على الكوفة : أن استنشد من قبيلتك من شعراء
مصر ك ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة
في صحيفة . ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ،
فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين .
ويميضي الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه ^(٢) .
فن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سِرُّ بالاً

(١) أناب (طبعة الساسي) ١٣١/١٥ .
طبعة دار الكتب (٣٦٩/١٥) وانظر الاستيعاب
س ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

(٢) الشعر والشعراء ٢٣٢/١ والأغني

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصلحه المجلسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمتضي مفاخرأ فخرأ عيفأ بأبائه وفتوته معتدأ اعتدادأ لآحدأ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثم وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن علاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطبة النزاري^(١) وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخرأ بقومه وشجاعتهم وبلاهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشسه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يفامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيرأ ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات . على نحو ما صنع في معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الظاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . وخرج من ذلك إلى تشبيهها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها . ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه . ويفخر بقومه وكثرة سادتهم وما سنه لهم آباؤهم . يقول :

إننا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا ليزأزُ عظيمةٍ جشأمها^(٢)
ومقسَّمٌ يُعطى العشيبة حَقَّها ومُعذِّمٌ لحقوقها هضامها^(٣)
فضلاً ، وذو كرمٍ يُعين على الندى سَمَحٌ كسوبٌ رغائبِ غنَّامها

(١) أغاني (سأسى) ٥٢/١٥ .

(٢) معذمر : لا يمتطي . هضام هنا : يعطى

قوياً ويحرم آخرين .

(٣) المزاز : الملازم للشيء ، جشامها :

من التجنم وهو ركوب الخطر .

من مَعَشِرٍ سَنَّتْ لهم آبائهم ولكل قومٍ مُنَّةٌ وإمامها
فبنوا لنا بَيْتاً رفيعاً سَمَكُهُ فسما إليه كَهْلها وغلَامها
فأقنَع بما قسمَ المليكُ فإنما قسمَ الخلائقَ بيننا علَامها

وشعره الجاهلي دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره
ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ،
وقد يتحدث عن المطر . وهو في ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد في لفظه ،
حتى لميس قارنه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها .
واقراء ما لم نَرَوْه من المعلقة قبل هذه الأبيات التي أنشدناها فإنك ستجده مفرغاً في
الألفاظ متناهية في الإغراب . ومن ثمَّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال :
إنه رحي بَزْرٍ^(١) ، يريد أنه خشن لا يحسن في السمع ، وقال الأصمعي ، شعر
ليبد كأنه طيلسان طبراني أي أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم
تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلأوة ، ومن ثمَّ يقول فيه ابن
سلام : « كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق »
ويتضح ذلك في مرثيته المشهورة لأخيه أربد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفي
معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك
والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكله
قوله^(٢) :

بَلِينَا وما تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَّى الجِبَالُ بعدنا والمصانع^(٣)
فَلَا جَزَعُ إن قَرَّقَ الدهرُ بيننا وكل فتى يوماً به الدهرُ فاجعُ
وما الناسُ إلا كالديار وأهلها بها يوم حَلُّوها ، وغَدَوْا بِلَاقِعُ^(٤)

(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر .

وغدوا : غدا .

(١) الموشح للمرزباني ص ٧١ .

(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٣) المصانع : الأبنية الصنعة .

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعٌ^(١)
وما البرُّ إلا مُضمراتٌ من التُّقى وما المالُ إلا عارياتٌ ودائعُ
وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامي أنه انتقل من الألفاظ
الخشوية إلى الديباجة الطلية . فقد تغلغل الإسلام في ضميره . فاتجه في
أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذي ينتظره .
يقول في قصيدة له^(٢) :

إنما يحفظ التُّقى الأبرارُ وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله ترجعون وعند الله هـ ورُدُّ الأمور والإصدارُ
كلُّ شيءٍ أحصى كتاباً وعِلماً ولديه تجلَّتِ الأسرارُ
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أُزِّ ظِرَّتْ لو كان ينفع الإنظارُ^(٣)
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأيّ ام إلا يرمرمُ وتعارُ^(٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس
معروضون على الله يوم القيامة وقد أحصى كل شيء في كتاب وأن الموت
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . ويمضي في
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوفاً
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح : ومهوناً من الدنيا
ومتاعها الزائل ونعيمها الفاني ، على نحو ما نرى في لاميته التي تؤمن بأنه نظمها
في الإسلام ، وفيها يقول^(٥) :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَّةٌ تصفرُّ منها الأناملُ^(٦)

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء

٢٣٧/١ والطبرى ٢٨/٥ .

(٦) يريد بالدوئية الموت .

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان لبيد ص ٤١ والحيدان ١٦٣/٧ .

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمرم وتعار : جيلان في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقة الموت) أما البيت الثالث فاستمدّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه^(١) وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم ، ومن ثمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرِّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله^(٢) :

لله نافلة الأجلِّ الأفضلِ وله العُلا وأثيثُ كلِّ مؤثِّل^(٣)
لا يستطيع النَّاسُ مَحَوَّ كتابه أنَّى وليس قضاؤه بمبدلٍ
وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبین ، وأن كلا سيَجْزَى بما سجَّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شئ أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضى ليبد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان وذسره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من ريب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته^(٤) :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعاً بالخيرِ والشرِّ بآئٍ أولعاً^(٥)
يملاً له منه ذنوباً مُتْرَعاً وقد أباد إرماً وتبعاً^(٦)
والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما ينسب إليه منها يدل على أن

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) أثيث : موطأ عظيم . مؤثِّل : مؤصل ،
(٤) ذنوباً مترعاً : دلوا تملوا .
(٥) الديوان ص ٣٣٧ .
(٦) ويوصف به الملك والمجد .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، ففضى بحيلها أبياناً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيده التي يقول فيها^(١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلْ وَيَأْذَنُ اللَّهُ رَبِّي وَعَجَلْ^(٢)
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مِنْ هِدَاةِ سُبُلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضَلْ
فَاكْذَبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُزْرَى بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبْنَهَا فِي التَّقَى وَاخْزُرْهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ^(٣)

وزراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقدته لأربد وبيكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاحراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يعتم بقية أجله بخير عمله .

٥

الخطيئة^(٤)

اسمه جرّول . ولُقِّبَ بالخطيئة لقصره أولد مامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضراء ، كانت لأوس بن مالك العبّسي . ونشأ في حجره مغموراً في نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعف جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تفتححه العيون . ولم يكن فيه

والأنغاف (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة
٦٣/٢ والخزاعة ٤٠٨/١ وحديث الأربعة
لعه حسين (طبعة الحلبي) ١٥٣/١ وما بعدها .
ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جوده تسهر
والشنتيطي ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بطبعة
الحلبي ، وسنتمتد على نشرته .

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان
ص ١٧٤ وما بعدها .
(٢) النفل : العلية . التريث : البطء .
(٣) اخزها : سها واقهرها .
(٤) انظر في ترجمة الخطيئة ابن سلام
ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عيس » على نحو ما صنع
عنترة من قبله . ومن ثمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب
في غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سُلمى يعلمه إحكام
صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيئة كان يروى
شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يدور على الألسنة
ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله
وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تُعنى بالمعاني ودقها .

ويضيء الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة
هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة
كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه
يسارع إلى الردّة ، مُعينا بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى
ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر
أيورثها بكرةً ، إذا مات ، بعده فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهر
على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره^(١) . وقد عاد مع المرتدين
إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الحطيئة
جشعاً سؤولاً ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ،
رثاً الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من
عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره »^(٢) . وقد يكون الأصمعي بالغ
في نعتة بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في
الجاهلية من أمثال عيينة بن حيصن الفزاري وزيد الخليل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبري ٣/٤٧٦ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/١٦٣ .
الخطيل وقرن بالديوان ص ٣٢٩ والأغاني ١٥٧/٢ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن عُلّانة حين نافر عامر بن الطفيل^(١) . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى ولبيد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوّهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يوم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّه على داره حيث زوجته وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة - إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان - حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه ، وانطلق بُشئى عليهم ثناء رائعاً معروضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لُبُغَيْتِهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٢)
ورفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَّخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماء ولا شَجَرٍ^(٣)
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ، فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عَمْرُ
ولأن له قلب عمر ، فعقاعته بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤) .

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزبرقان وجدناه لا يُقنّذ في هجائه ، إنما يمسه على نحو ما رأينا في بيته السالف بروق ، عامداً إلى التهمك والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفّف من حدة لسانه ، ونراه يصرّح بذلك إذ يقول^(٥) :

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .
(٢) يريد المظوم المكسو .
(٣) ذومرّخ : واد بالهجاز . الأفراخ :
سفار الطير شدّها أولاد . زغب الحواصل :
لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ،
كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .
(٤) انظر في القصة الأغانى ٢/ ١٧٩ وما بعدها .
(٥) الديوان ص ٩٨ :

ولما أن مدحتُ القومَ قلمٌ هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
 ألمُ أكُ مسلماً فيكونُ بيني وبينكمُ المودَّةُ والإحياءُ
 ولم أشتُمُ لكمُ حسبا ولكن حَدوتُ بحيثُ يُستَمعُ الحداءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذم بها ، ويقول إنه حين مدح بني أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبيرقان جمعاءوا ذلك ذمًا لهم وهجاء ، لمدحه خصوصهم . ونراه يولئ وجهه نحو عاقمة بن عُلانة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان . فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عند حين يطعن عليه أهلها . وقد حُسلت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاصر الذي خلعه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لماوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرفة لسانه . والمطزون أنه توفي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعنى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « حبر الشعر الحولُ المحككُ » فهو ممن كان يتأذون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطعات ، ونراه في مطولاته يشبب ويصف الصحراء وحيواناتها الوحشية والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والحدُّ
 أولئك قومٌ إن بتوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وكانوا يعيرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرضاً باز بيرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذئابُ غيرهمُ ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُرْوَى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لئراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لى وجهها شوه الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله
أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ، وبتقصيده « وطاوى ثلاث »^(١) وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله من حوله يتضورون جوعاً ، فهم أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عنت له أتان وحشية ، فصاها وأطعدها ضيفه . والتقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم العربية .

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رفيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره في الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراد في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله الممدوحه على ما يقدم له من بيرة على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فليجزه الله خيراً من أخى ثقتي وليهدد بهدى الخيرات هاديتها
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامى الحقيقة نفاع وضرار
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة^(٢) :

من يفعل الخير لا يعام جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حسن إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على ذلك قوله في وصف التقي والعدل الصالح^(٣) :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للاتق مزيد

(٣) أغاني ٢/ ١٧٥ والديوان ص ٣٩٣ .

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢/ ١٧٣ .

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا يُنْال إلا بالتقوى . فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيثة ، بل أخذ يُرسل فيها مثل هذه الإشاعات البيرة .

٦

النابعة^(١) الجعدى

هو عبدالله^(٢) بن قيس من بني جَعْدَةَ العامريين ، ولد بالفَتْح جنوبى نجد ، ولما سبَّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُدسى النابعة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والنابعة الجعدى في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصارهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التي يؤبّنه فيها بقوله^(٣) :

فَتَى كَمَلْتُ أَحْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْنَى مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوُّ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخمين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تغد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وقد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

نالينو أشعاره ونشرتها في روما سنة ١٩٥٣ .
(٢) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله
ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حيان بن قيس .
(٣) الشعر والشعراء ٢٥٢/١ والديوان
ص ١٢٣ .

(١) انظر في ترجمة النابعة : الشعر والشعراء
٢٤٧/١ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأعاني
(طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة
٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢١٨
وأمال المرتضى ١/٢٦٣ والعمريين ص ٦٤ والخزانة
٥١٢/١ والموشح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريًا

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدودُنَا وَإِنَّا لَنَبْنِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . و أعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْقُضُ اللهُ فَالكَ (١) .

وَيُظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، بَلْ أَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ مَهَاجِرًا ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْفَتْوحُ خَرَجَ مَعَ الْعَرَبِ مِيمَمًا نَحْوَ الشَّرْقِ وَالْفُرْسِ مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَشَّرَ الدَّعْوَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ . وَقَدْ أَخَذَ يَضِيفُ إِلَى رَائِعَتِهِ الَّتِي أَنْشَدَهَا الرَّسُولُ أَيْبَانًا كَثِيرَةً ، تَصُورُ حَيَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَابْتِغَاءَهُ رِضْوَانَ اللَّهِ بِجِهَادِهِ وَتَقْوَاهُ جَمِيعًا يَقُولُ (٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا (٣)
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَالِحَ ثُمَّتَ غَوْرًا (٤)
أَقِمِ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا (٥)

وعاد إلى المدينة وتشوق إلى منازل قومه في البادية ، فاستأذن عثمان في الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين علي ومعاوية وجدناه في صفوف علي بصيفيين ، يَرَجُزُ بِخُصُومِهِ وَيُنْظِمُ الْأَشْعَارَ فِي مَدِيحِهِ وَهَجَاةٍ مَعَاوِيَةَ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنْ عَلِيًّا فَخَلُّهَا الْعُتَاقُ (٧)
إِنَّ الْأَلَى جَارُوكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقُ وَلَكُمْ سِيَاقُ
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرِّفَاقُ سُقْتُمْ إِلَى نَهْجِ الْهُدَى وَسَاقُوا
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النُّفَاقُ (٨)

(٥) أوجر : خائف .

(٦) أغاني ٣١/٥ والديوان ص ١٣٣ .

(٧) المصران : الكوفة والبصرة . العتاق : الكريم .

(٨) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها غاية .

(١) أغاني ٨/٥

(٢) أغاني ٩/٥ والديوان ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) الهجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر

ضوؤها فيرى كأنه بقعة بيضاء .

(٤) غور النجم : غاب .

ولعل هذا هو الذي جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية .
 ويُرْوَى أنه لما قُتِل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كُتِب إلى مروان عامله على
 المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعنا عنه .
 ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيْبُضْطَرَّ أبو موسى الأشعري
 وإلى البصرة لعمركم أن يضربه أسواطاً ، وكأما كانت فيه بقية من عصبته
 الجاهلية . ولا نشك في أن هذه البقية فيه هي التي دفعت به إلى الاصطدام بأوس
 ابن مَعْرَاء ، ويقول ابن سَلَام إنه غلب عليه ولم يكن إليه في الشعر ولا قريباً .
 ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوَّار بن أوفى القشيري ،
 وتتصدى له زوجه ليلي الأخيلية . ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا
 إليه في الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام في نفسه أثر في تلك الهزائم ،
 إذ كان يتحرج من المضي في الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل
 هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه في أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم
 عليه في مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها^(١) :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لَمَّا وَلَيْتِنَا وَعِثَانَ وَالْفَارُوقَ فَارْتَا حِ مَعْدُمُ
 وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ
 وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن
 توفى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن
 الرواة بالغوا في ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عُمرَ مائة وثمانين
 سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله^(٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
 نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مَحْرَقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْمَرَا
 والمنذر بن محرق هو المنذر بن ماء السماء الذي قُتِل في بعض حروبه مع
 الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك في أن هذا الشعر مصنوع عليه .

(٢) أغاني ٦/٥

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٠٤

والديوان ص ١٣٧ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناه الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبّر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله (١) :

مَنَعَ الْغَدْرَ فَلَمْ أَهْمُمْ بِهِ وَأَخُو الْغَدْرِ إِذَا هَمَّ فَعَلْ
خَشِيَةَ اللَّهِ وَأَنْتَى رَجُلٌ إِنَّمَا ذِكْرِي كِنَارٍ بِقَبْلِ (٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول (٣) :

عُمِّرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى وَقَوَارِعُ تُنَلَّى مِنَ الْقُرْآنِ
وَلِبَسْتُ مِلَّ الْإِسْلَامِ ثَوْباً وَاسِعاً مِنْ سَيْبِ لَا حَرَمٍ وَلَا مَنَانِ (٤)
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام ألياناً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرد على هذا النمط (٥) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمَا
الْمَوْلُجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ لِي نَهَاراً يُفْرَجُ الظُّلْمَا
الْخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعْمَا (٦)
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمَصُورِ فِي الْأَرْضِ مِنْ نُطْقَةٍ قَدَّمَا مَقْدَرُهَا
مِنْ نُطْقَةٍ قَدَّمَا مَقْدَرُهَا مِنْ نُطْقَةٍ قَدَّمَا مَقْدَرُهَا
ثُمَّ عِظَاماً أَقَامَهَا عَصَبٌ ثُمَّ كَسَا الرَّأْسَ وَالْعَوَاتِقَ أَبْ
شَاراً وَجَلَدًا تَخَالَه أَدَمَا (٧)

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الديوان ٥٠٤/٣ .

(٢) القبل : النشر من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .

(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمال المرتضى ٢٦٦/١ .

(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :

عطاء . حرم : مناع .

(٥) الشعر والشعراء ٢٥٣/١ وانظر الديوان ص ١٠٢ .

(٦) دعم : دعائم وعمد .

(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

وَالصُّوْتِ وَاللَّوْنِ وَالْمَعَايِشِ وَأَخْلَاقَ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَا
 تُمَّتَ لَا بُدَّ أَنْ سَيَجْمَعُكُمْ وَاللَّهُ ، جَهْرًا ، شَهَادَةً قَسَمًا
 فَاتْتِمِرُوا الْآنَ مَا بَدَا لَكُمْ وَاعْتَصِمُوا إِنْ وَجَدْتُمْ عِصْمًا
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا عِصْمَةَ مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ رَجِمًا
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى فَارَسٍ بَادَتْ ، وَخَدُّهَا رَغِمًا^(١)
 أَمْسُوا عَيْبِدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُمْ كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلْمًا
 أَوْ سَبًّا الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ يَبْتُنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا
 فَمُرُّوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا الْهُونَ وَذَاقُوا الْبِئْسَاءَ وَالْعَدَمَا^(٢)
 وَبَدَّلُوا السُّدْرَ وَالْأَرَكَ بِهِ الْخَطَّ وَأَضْحَى الْبُنْيَانَ مُنْهَدِمَا^(٣)

والتابعة في مطلع هذه العظة يُثنى على الله بما هو أهله ، مقررًا لإيمانه
 بوحدايته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو
 يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا
 يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن
 نظام الكون المنبسط عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ،
 مستعيراً من القرآن نفس لفظه في قوله جَلَّ وَعَزَّ : (قل اللهم مالك الملك . . .
 بيدك الخبير إنك على كل شيء قدير تواج الليل في النهار وتواج النهار في الليل) .
 وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمد
 ترؤنها) . وخرج في البيت الرابع من خِصْلته للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم
 مثل قوله جَلَّ وَعَزَّ : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في
 قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة علقة فخلقنا العلقة مضغعة فخلقنا المضغعة عظاماً
 فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . وهو
 يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بشره . الخط :

تمر الأراك أو هو نبت مر .

(١) رغم الحد : كناية عن الذل .

(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .

القرون والأمم البائدة مكملاً بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةً جنتان عن يمين وشمال .. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلاً العریم وبدلناهم بجناتهم جنتين ذواتى أكل خمطٍ وأنثل وشيء من سدرٍ قليل ذلك جزيتناهم بما كفروا .. وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادي كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألقبت أضواؤه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينقرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفانى ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .